المحاضرة (3): نظرة على تطور الإنتاج السمعي البصري.

مقدمة

تطور الإنتاج السمعي البصري منذ بداياته الأولى وحتى العصر الرقمي الحالي، مرورًا بمحطات تقنية، فنية، واجتماعية، ومن خلال هذه المحاضرة نسعى إلى فهم الأبعاد المختلفة لهذا التطور، واستيعاب التغيرات التي أثّرت في طبيعة المحتوى، طرق إنتاجه، ووسائل استهلاكه.

أولًا: الجذور التاريخية للإنتاج السمعي البصري

1. ما قبل السينما

قبل ظهور السينما، سعى الإنسان إلى خلق صور متحركة بوسائل بسيطة وبدائية مثل **الفوانيس السحرية** (Lantern Magic) و**أسطوانة الفيناقسكوب**، وقد كانت هذه الوسائل أدوات تسلية ولكنها مثّلت النواة الأولى لفكرة السرد البصري.

يشمل السمعي البصري ما قبل السينما الأشكال الأولى لتسجيل ونقل المعلومات التي تعتمد على حاستي السمع والبصر معاً، مثل الصور المتحركة الأولية، واختراعات الشاشة التي تعتمد على الوهم البصري لتشكيل حركة وهمية، والأفلام الصامتة المبكرة، والعروض المسرحية المرئية التي سبقت ظهور السينما كتقنية متكاملة.

2. ولادة السينما

في أواخر القرن التاسع عشر، وتحديدًا سنة 1895، قدّم الأخوان لوميير أول عرض سينمائي باستخدام جهاز عرض يُعرف بـ"السينماتوغراف". تميزت هذه المرحلة بكون السينما **وثائقية** و**تسجيلية** أكثر من كونها سردية. لاحقًا، جاء المخرج الفرنسي **جورج ميلييس** ليُدخل عنصر **الخيال والمؤثرات** على الصورة، ممهدًا الطريق نحو **السينما القصصية**.

السمعي البصري هو استخدام كل من حاستي السمع والبصر لنقل المعلومات أو خلق تجربة فنية، وقد تجسد هذا المفهوم بشكل ملحوظ مع ظهور السينما، حيث بدأ الفيلم يأخذ شكل الأعمال التي تجمع بين الصورة المتحركة والصوت، مما خلق واقعًا أكثر تفاعلية وغنى فني.

تطور مفهوم السمعي البصري مع السينما:

- **السينما الصامتة :**

في بداياتها، كانت الأفلام صامتة، تعتمد على البصر وحده لخلق رواية بصرية، لكنها كانت تعتمد أيضًا على العناصر السمعية في الواقع مثل الموسيقى.

- **ظهور السينما الناطقة :**

شكل عام 1927 نقطة تحول هامة بانتقال السينما إلى مرحلة الأفلام الناطقة، حيث تم دمج الصوت في الفيلم. هذا الانتقال سمح بظهور عالم أكثر واقعية وحيوية، مما يعزز التجربة السمعية البصرية للمشاهد .

- **التطورات التقنية :**

مكنت التقنيات الحديثة من نقل الأفلام إلى لغات مختلفة، حيث ساهمت الدبلجة في نقل المحتوى السمعي البصري الأمريكي إلى مختلف أنحاء العالم لجمهور أوسع.

ثانيًا: مرحلة التلفزيون وهيمنة المؤسسات

مع ظهور **التلفزيون** في ثلاثينيات القرن الماضي، انتقل الإنتاج السمعي البصري من قاعات السينما إلى غرف المعيشة.
أصبح التلفزيون الوسيلة الأكثر تأثيرًا في تشكيل الرأي العام، وتحوّل إلى **أداة سياسية وثقافية**، خصوصًا خلال الحرب الباردة، حيث استُخدم للبروباغندا، ولترسيخ ثقافات وطنية وأيديولوجيات رسمية.

ظهر التلفزيون كأهم أداة في المجال السمعي البصري، حيث دمج بين الصوت والصورة في آن واحد، مما أضاف بعداً جديداً للإعلام والاتصال ولم يقتصر دوره على نقل الأخبار والبرامج بل أصبح نافذة على العالم ومصدراً أساسياً للمعرفة والترفيه، وساهم في تطور المحتوى الإعلامي بشكل كبير من خلال إدخال أنواع جديدة من الإنتاجات مثل المسلسلات والنشرات المصورة.

عناصر ظهور السمعي البصري مع التلفزيون

- **دمج الصوت والصورة :**

يعتبر التلفزيون أداة سمعية بصرية بالدرجة الأولى، لأنه يجمع بين الصوت المسموع والصورة المرئية في تجربة متكاملة للمتلقي.

- **الانتشار الواسع :**

بعد ظهوره في الخمسينيات، انتشر التلفزيون بسرعة ليصبح وسيلة الإعلام الرئيسية في المنازل، مما جعله جزءاً أساسياً من الحياة اليومية.

- **تنوع المحتوى :**

لم يقتصر التلفزيون على نوع واحد من المحتوى، بل تطور ليقدم نشرات الأخبار المصورة، والبرامج الترفيهية المتنوعة، والمسلسلات، مما ساهم في توسيع آفاق الإعلام.

- **نافذة على العالم :**

أصبح التلفزيون نافذة على الأحداث العالمية، حيث نقل الأخبار والثقافات من جميع أنحاء العالم إلى البيوت، ليساهم في ربط العالم.

- **التأثير الثقافي والاجتماعي :**

يمثل التلفزيون أداة مهمة للتعلم والتربية، حيث ينقل المعارف والأفكار إلى مختلف شرائح المجتمع، ويثقف المشاهدين من خلال المحتوى المقدم.

أهم مميزات هذه المرحلة:

- **الإنتاج موجّه ومركزي** :تحت سيطرة مؤسسات الدولة أو الشركات الكبرى.
- **برامج موحدة** :الأخبار، الدراما، البرامج الوثائقية.
- **قلة التفاعلية** :الجمهور كان متلقيًا سلبيًا.

ثالثًا: الثورة الرقمية وتغير قواعد اللعبة

منذ تسعينيات القرن العشرين، شهد العالم تحوّلًا جذريًا بفعل **الرقمنة** وظهور شبكة الإنترنت، مما أدى إلى **تفكيك البنية التقليدية للإنتاج السمعي البصري.**

1. تقنيات جديدة للإنتاج:

- الكاميرات الرقمية المحمولة.
- البرمجيات مثل **Adobe Premiere** و**Final Cut** جعلت المونتاج متاحًا للجميع.

- التخزين السحابي سهّل التعاون والإنتاج عن بعد.

.2الإنترنت كمنصة عرض

مع انطلاق **يوتيوب (2005(**، ظهرت أنماط جديدة من الإنتاج، منها:

- الفيديوهات القصيرة والمحتوى اليومي.
- البودكاست.
- المؤثرون الرقميون.
- الجمهور لم يعد مجرد متلقي، بل **منتج ومشارك.**

في زمن الرقمنة، تحوّلت الوسائل السمعية البصرية من التلفزيون والسينما والأفلام إلى المحتوى الرقمي المتاح على الإنترنت، مما أحدث ثورة في الإنتاج، والوصول، والحفظ. فقد أدت الرقمنة إلى تسهيل حفظ الأرشيف السمعي البصري، وتحسين طرق إتاحتها للمستفيدين، وحمايتها من التلف والضياع، مع إتاحة إمكانيات جديدة لمشاركة المعلومات وإنشاء محتوى تفاعلي.

تأثير الرقمنة على المواد السمعية البصرية:

- **الحفظ والإتاحة :**

وفرت الرقمنة حلولاً لمشكلة تشتت وفقدان المواد السمعية البصرية وتلفها بمرور الوقت . الآن، يمكن تحويل المواد القديمة إلى صيغ رقمية، مما يضمن حفظها وإمكانية الوصول إليها لفترات طويلة .

- **تنوع الوصول :**

لم يعد الوصول إلى المواد السمعية البصرية مقتصراً على الأجهزة التقليدية مثل التلفزيون والأفلام، بل توسع ليشمل أجهزة الحاسوب والهواتف الذكية والأجهزة اللوحية، مما يسهّل استهلاك المحتوى في أي وقت ومكان.

- **إمكانيات جديدة للإنتاج والمحتوى :**

سمحت الرقمنة بظهور منصات جديدة لإنتاج المحتوى، مثل يوتيوب ومنصات البث المباشر، وتطوير أشكال جديدة من المحتوى التفاعلي. كما ظهرت تخصصات جديدة، مثل المخرج متعدد التخصصات الذي يعمل في مجالات الراديو والتلفزيون والسينما .

- **تحديات الأرشفة الرقمية :**

بالرغم من فوائدها، تواجه الأرشيفات الرقمية تحديات خاصة بها، مثل الحاجة إلى تحديث الصيغ الرقمية باستمرار، وضمان استمرارية الوصول إلى المحتوى، وحماية البيانات من الهجمات السيبرانية .
أمثلة على المواد السمعية البصرية في العصر الرقمي:

- **التلفزيون الرقمي والإنترنت :**

تشمل الأفلام والمسلسلات والبرامج التي يتم بثها عبر منصات مثل نتفليكس ويوتيوب .

- **المحتوى التعليمي :**

الفصول الافتراضية والمواد التعليمية التي تجمع بين الصوت والصورة، مثل الفيديوهات التعليمية .

- **ألعاب الفيديو :**

تمثل ألعاب الفيديو تطوراً كبيراً للمحتوى السمعي البصري التفاعلي، حيث يشارك المستخدم في الأحداث ويتفاعل معها بصرياً وسمعياً.

رابعًا: تحوّل مفاهيم الجمهور والاستهلاك

في الماضي، كان الجمهور متجانسًا ومحدود الخيارات. أما اليوم، فقد أصبح:

- **متشظيًا** :منصات مختلفة، اهتمامات متنوعة.
- **تفاعليًا** :يعلّق، يشارك، يعيد إنتاج المحتوى.
- **متحكمًا في الزمن** :عبر خدمات On-Demand مثل **نتفليكس** و**أمازون برايم**.

أصبحت **الخوارزميات** تلعب دورًا رئيسيًا في تحديد ما نشاهده، ما يعني أن الصناعة أصبحت أكثر توجيهًا آليًا وأقل عشوائية.

تؤثر الوسائل السمعية البصرية بشكل كبير على مفاهيم الجمهور واستهلاكه من خلال تشكيل الرأي العام، وتوجيه الأفكار والقيم، وتعزيز ثقافة استهلاكية معينة، غالبًا ما تكون مؤثرة من قبل الدول الصناعية المهيمنة. فهي تنشر المعلومات بطرق جذابة، مما يسهل تبني مفاهيم غربية استهلاكية، وتعمل على تزيين منتجات هذه الدول وتجعل أفراد المجتمعات المستهدفة يقلدونها.

تأثيرها على مفاهيم الجمهور:

- **تشكيل الرأي العام :**

تساهم الوسائل السمعية البصرية في تشكيل رؤى الجمهور وتوجيه توجهاته عن طريق تقديم الأحداث بطريقة معينة.

- **تغيير الأفكار والقيم :**

يمكن للرسائل الإعلامية أن تؤثر على مفاهيم الأفراد وقيمهم، وخاصة عندما تكون هذه الرسائل ذات طبيعة استهلاكية.

- **نشر المعلومات :**

تهدف الوسائل السمعية البصرية إلى نشر المعلومات وتزويد الجمهور بها، مما يساهم في توفير الوقت والجهد لدى الأفراد.

تأثيرها على الاستهلاك:

- **تشكيل الثقافة الاستهلاكية :**

تمتلك الوسائل السمعية البصرية قدرة كبيرة على تشكيل ثقافة استهلاكية جديدة وموحدة، وغالبًا ما تكون ذات طابع غربي.

- **تزيين المنتجات والسلع :**

تستخدم هذه الوسائل أساليب الترغيب والتزيين لجعل منتجات وثقافات الدول الصناعية تبدو جذابة للأفراد، مما يحفزهم على استهلاكها.

- **خلق متلقٍ سلبي :**

قد يتحول الجمهور إلى متلقٍ سلبي، يقلد ما تعرضه وسائل الإعلام دون تفكير أو تمييز .

كيف تحدث هذا التأثير؟

- **طرق العرض :**

تستخدم الوسائل السمعية البصرية أشكالًا فنية وجمالية جذابة لنقل رسائلها .

- **الوصول الواسع :**

تغطي الوسائل السمعية البصرية شريحة واسعة من الجمهور، مما يجعلها وسيلة فعالة لنقل الأفكار وتغيير السلوكيات.

- **الربط بين الثقافات :**

تساهم الوسائل السمعية البصرية في تقريب المجتمعات من بعضها البعض، مما يسهل انتقال المفاهيم الثقافية والاستهلاكية

خامسًا: إشكاليات وتحديات الإنتاج السمعي البصري المعاصر

رغم التقدم التقني، يواجه الإنتاج السمعي البصري المعاصر عدة تحديات:

.1الذكاء الاصطناعي:

- إنتاج النصوص، الأصوات، الصور والفيديوهات بشكل آلي.
- تهديدات حقيقية على **وظائف تقليدية** في الصناعة.

.2الملكية الفكرية:

- من يملك الصورة؟ الصوت؟ المحتوى المُنتَج بالذكاء الاصطناعي؟
- قضايا السرقة، إعادة النشر، والمحتوى المُعدّل باتت معقدة.